كان يلقى منهما عند الله ويقول لصديقه وأخيه خالد: كل امرئ يُجاهد كما يستطيع: شيخك يجاهد بالحج في كل عام، فيكسب منه مَالًا وثوابًا إن أراد الله أن يُثيبه على مثل هذا الحج، وأنت تجاهد في تربية أبنائك وتعليمهم، تتكلف في ذلك ما لا تطيق، وتسلك بهم طريقًا لم تسلكها أنت؛ لأنَّ أباك لم يدفعك إليها، ولأنه لم يفكر في أن يجعلك خيرًا منه كما تُفكر أنت في أن يكون بنوك أحسن منك حالًا، وأنا أجاهد في احتمال الشر ولقاء الضر من امرأتَيَّ، تسوءانني في كل يوم وأسوءهما من حين إلى حين، وتلقيانني بالنُكر من القول والشر من العمل، فأصبر على ذلك ما وسعني الصبر، حتى إذا لم أطق عليه صبرًا عمدت إلى العصا، فشفيت بها نفسي من جسم هذه أو جسم تلك، وقد يبلغ الغضب بي أقصاه، فأُقرنهما في حبل واحد، وما أزال أُعمل فيهما السوط أريحه من هذه لأتعبه مع تلك حتى تتوبا وتثوبا وتعتنقا والعذاب ينصب عليهما انصبابًا، فإذا رفعت عنهما السوط وأطلقتهما من الحبل لم تهدآ، إلا ريثما تستأنفان ما كان بينهما من الشر، فتعود الدار جحيمًا، وأذوق أنا فيها العذاب الأليم.

قلت لك: كل امرئ يُجاهد كما يستطيع، ولست أشك في أن حظِّي من رضوان الله لن يكون أقل من حظك؛ لأني أحتمل مثل ما تحتمل من الألم، بل أكثر مما تحتمل من الألم، وأحمل نفسي على مثل ما تحمل نفسك عليه من الجهاد، بل على أكثر مما تحمل نفسك عليه من الجهاد. وكان خالد يسمع هذا الحديث فيبسم له، ويظهر إقراره، ثم يعود به على امرأته فيضحكان من بعضه ضحكًا كثيرًا، ويُنكران بعضه الآخر إنكارًا شديدًا، والشباب والصبية من أبنائهما يسمعون من ذلك ما يسمعون فيضحكون ويقلدون، ويعبثون إذا خَلَوا إلى أنفسهم أو إلى أمهم، بأبيهم حينًا، وبعمهم حينًا، وبجدهم الشيخ حينًا، وأمهم تسمع فتظهر الغضب وتكتم الرضا، وربما قصَّت من ذلك على زوجها أطرافًا فضحك له وارتاح إليه، وربما استخفى زوجها في بعض الحجرات ليتسمع على بنيه وهم يعبثون بالأسرة ويقلدون شيوخها وكهولها، يقلدونهم في اللهجة، ويقلدونهم في الصوت، ويقلدونهم في حركات الوجه واليدين، وقد يقلدون في التفكير أيضًا. وكان الاختلاف بين خالد وسليم قد اشتد وظهرت آثاره واضحة كل الوضوح على مر الأيام وتتابع السنين: فأما خالد فقد أقام في مدينته تلك بين جماعة من الموظفين يختلفون في الطبقة والثروة والثقافة والذوق، وكان خالد طموحًا، ولم تكن امرأته أقل منه طموحًا إلى الرُّقي؛ فكان خالد يحرص على أن تكون داره كدار كبار الموظفين، حسنة النظام، جميلة التنسيق؛ نفيسة الآنية والأداة، وكانت امرأته تعينه على ذلك أحسن معونة، وتدبر